وقد يفرقون بين المعاني بالحركات وغيرها فبالحركة يقولون : «مفتح»للالة بكسر الميم وفتح التاء و«مفتح» بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بتاء التانيث وعدمها فيقولون امراة طاهر بدون التاء اذا ارادوا طاهرة من الحيض لان الرجل لا يشاركها فيه واذا ارادو طهارتها من العيوب الخلقية قالوا امراة طاهرة لان الرجل يشاركها فيها فيحتاجون الى التمييز بينهما ومثله امراة قاعد اذا اثقلها الحبل وقاعدة من القعود اي جالسة لان الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى ان رجلا دخل على امير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال له من غير اعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له امير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت ابي الاسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها « ما احسن السماء » فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا اسال وانما انا اتعجب » فقال لها اذن قولي « ما احسن السماء » وافتحي فاك . وسمع ابو الاسود قارئا يقرأ قوله تعالى «ان الله بريء من المشركين ورسوله» بكسر اللام في رسوله فاكبر ابو الاسود ذلك وقال : عز وجه الله ان يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الاعراب للمصحف بامر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شبيبا بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقعنب
ومنا امير المؤمنين شبيب

فاخذه عبد الملك بن مروان وساله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم اقل هذا بل قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب بفتح الراء في امير اي يا امير المؤمنين فامر بتخلية سبيله .

وقد اشار ابن خلدون في مقدمته الى الاعراب عند العرب فقال : ان كلامهم اي العرب ـ واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة الا ترى ان قولهم : زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم .

فمن قال : زيد جاءني افاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة وكذا تاكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها في الادلة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التاكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراق وعلماء اللغات، نوهوا بخصيصة الاعراب في العربية قال العلامة « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال البحاثة : « لوي مسينيون » في حين **ان اللغة السريانية قد نقلت اجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء ضخما من الاعراب يضع امام الابصار مشهدا فلسفيا ذا روعة واصالة .**

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه اللائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل وضوح وابانة وهدى وافصاح .

3) العربية والحركة

اللغة العربية من اعرق اللغات منبتا واكثرها رسوخا واقواها جلادة واشدها بنيانا وفي ظل الحضارة الاسلامية صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت العربية في رحاب عالمية الاسلام ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات الفكر وترتفع حتى تصعد ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها وقدرتها على التفوق تباورا وتفاعلا ونماء واعطتها طاقة خلاقة وحياة مدهشة .

وكان لحركيتها التي امتازت بها : الاصالة الجاهدة المولدة المعطاءة والميزات المطواعة المتطورة ولم تعد حروفا وقوالب فارغة يملأها الفكر فتحمله ، بل انها بعض الانسان المسلم بعض كينونته ، هو ينبوعها وهي مجراه وقلنا انها بعض الانسان المسلم لانها لغة القرءان الكريم وانك لتجد الاحساس الدقيق متمثلا في مفرداتها ويتجلى هذا في التركيب ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت بعبارة اخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

وتكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور الفاظها مشاهد الطبيعة تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ وتتمثل في نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشاعل القوة .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية ، عن تصويرها بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا هي المقاطع بارز القسمات .

والحياة في العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة وكلماتها تنعم بهذه الحياة في الحين الذي نجد الكلمات في سائر اللغات ادوات جامدة لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد ان تجتمع منها الى بعضها وتؤلف عبارة .

واذا كانت بقية اللغات ادوات للتعبير متى بلغتها فقد بلغت الغاية القصوى وانتهت مهمتها فان اللغة العربية لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها لانها في تفاعلها وتطورها كانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية ذات الاصول الثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة فمثلا: النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز انظر الى فروع هذا الجذر فتجد ان معنى :

نبت : برز من الارض ، ونبط : اخرج ماء البئر

ونبع : خرج من العين ، ونبغ : خرج وظهر

الى ءاخر ما هناك من الكلمات التي تتشابه في الاصل والعربية في عبقريتها لم تكتف بهذا المنطق الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من ذلك وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في الكلمات فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه تماما ، خذ مثلا كلمة « غضروف » ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحروف في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة وفي السرعة ، فماذا تفعل العربية لتتلافى هذا الامر انها تتساهل معك وتقول لك اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فاللفظ «فرضوف» فانها هي نفسها ، فهي لا تتمنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تاخذك بالحسنى .

وكان اللغة العربية بهذه الحركية والحياة تريد ان تدفع بابناء الاسلام الى المجد دفعا وتصل بهم في ظل القرءان الكريم الى ذروة ما قدر لهم من نجاح وعز وسؤدد ، وتغرس فيهم حب العمل والحركة والاعتماد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعث في قلوبهم النشاط وتقشع السكون والاستكانة فلا ينبغي ان تكون لغة القرءان متحركة حية واهلها جامدون ساكنون .

ولقد اعرب عن الحياة في اللغة العربية العالم النحوي ابو الفتوح عثمان بن جني فوضح القول عن الكلام واللغو وانهما يدلان على الحركة والسرعة والقوة .

وذكر ان معنى « ق و ل » اين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتاخره عنه انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها وهي :

ق و ل ، ق ل و ، و ق ل ، و ل ق ، ل ق و ، ل و ق .

الاصل الاول : « ق و ل » وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون الا ترى ان الابتداء لما كان ءاخذا في القول لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء ءاخذا في السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا .

الاصل الثاني : « ق ل و » منه القلو حمار الوحش وذلك لخفته واسراعه قال العجاج :

تواضح التقريب قلوا مغلجا

ومنه قولهم : قلوت البسر والسويق فهما مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلي جف وخف وكان اسرع الى الحركة والطف قال :

قد عجبت مني ومن بعيليا
لما راتني خلقا مقلوليا

اي خفيفا للكبر طائشا

قال :

وسرب كعين الرمل عوج الى الصبا
بواعف بالحادي حور المدامع

سمعن غناء بعد ما نمن نومة
من الليل فاقلولين فوق المضاجع

اي خففن لذكره فزال عنهن نومهن واستلقاؤهن على الارض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

قال ابن مقبل:

عودا احم القرا ازمولة وقلا
ياتي تراث ابيه يتبع القذفا

الرابع : « و ل ق » قالوا ولق يلق اذا اسرع قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

اي تخف وتسرع وقريء «اذ تلقونه بالسنتكم» اي تخفون وتسرعون .

الخامس : « ل و ق » جاء في الحديث لا آكل من الطعام الا مالوق لي .

اي ما خدم واعملت اليد في تحريكه وتلبيقه حتى يطمئن وتضام جهاته ومنه اللوقة للزبدة وذلك لخفتها واسراع حركتها .

السادس : « ل ق و » منه اللقوة للعقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتخاء الجناحين لقوة
دفوف من العقبان طاطات شملال

ومنه اللقوة في الوجه والتقاؤهما : ان الوجه اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :

وكانت لقوة لاقت قبيصا

واللقوة الناقة السريعة اللقاح وذلك انها اسرعت الى ماء الفحل فقبلته ولم تنب عنه نبو العاقر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة والمستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ، ك م ل ، ل ك م ، م ك ل ، م ل ك واهملت منه ل م ك فلم تات في ثبت .

فمن ذلك الاصل الاول «ك ل م» منه الكلم للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى: «دابة من الارض تكلمهم» قولين احدهما من الكلام والآخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتاكلهم وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما غلظ من الارض وذلك لشدته وقوته ، وقالوا رجل كليم اي مجروح وجريم قال :

عليها الشيخ كالاسد الكليم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل فهو كامل وكميل وعليه بقية التصرف والتقاؤهما : ان الشيء اذا تم وكمل كان حينئذ اقوى واشد منه اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه اللكم اذا وجات الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سبيله انشد الاصمعي :

كان صوت جرهما تساجل
هاتيك هاتا حتنى (2) تكابل

لدم العجى تلكمها الجنادل

(2) حتنى : اي مستوية